

"تفسير طبيعة الوعي، كخطوة نحو تحديد مستقبل الإنسانية."

**Interpreting the nature of consciousness, as a step towards
determining the future of humanity. »**

سمية بوربيعة¹

¹ جامعة الشهيد حمة لخضر-الوادي (الجزائر)،

bourabiasoumia01@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/11/16 تاريخ القبول: 2024/02/07 تاريخ النشر: 2024/03/03

ملخص:

لقد صار مفهوم الأزمة مصاحبا لحياة الإنسان المعاصر في تجلياتها المختلفة، سواء تعلق ذلك بالحياة الروحية، الاجتماعية، الأخلاقية أو الإقتصادية. وغالبا ما تفسر تجليات الأزمة هذه بـ "أزمة الوعي". وقد اهتم العديد من الفلاسفة والعلماء بمسألة الوعي هذه، استجلاء لطبيعته ودوره السلبي والإيجابي في ظهور التجليات السابقة الذكر. إن هذا ما جعلني أقدم على دراسة هذه المسألة محاولة تفسيرها وتوضيحها.

كلمات مفتاحية: الوعي، المادية، الإختزالية، التجربة الشعورية الذاتية.

Abstract: It is a well known fact that the notion of crisis has been seen to characterize the life of modern man in its manifold manifestations, whether spiritual, social, moral or economic. And this is usually explained by reference to the concept of "crisis of consciousness". And due to the importance of consciousness, we see many philosophers and scientists take an interest in it in order to find out how far consciousness is accountable for the multiple aspects of crisis mentioned above. As this is so important, I tried on my part to delve into it in an attempt to explain and clarify it.

Keywords: Consciousness, Materialism, Reductionism, Subjective Character of Experience.

***المؤلف المرسل: سمية بوربيعة.**

1. مقدمة

يصنف الوعي تاريخيا من بين أهم القضايا التي شغلت اهتمام الفلاسفة على اختلاف أزمته، ف"سقراط" «Socrates» (470 ق.م-399 ق.م) يعتبر أن معرفة الذات مرتبطة بالوعي بأهميتها، وهي خطوة أساسية لاستعادة الذات المستلبة. أما "أفلاطون" «Plato» (428 ق.م-347 ق.م)، يذهب إلى توضيح كيفية ملازمة الوعي لجميع أفعال الإنسان باعتبارها مصدرها الأساسي، ويؤكد لنا "رينيه ديكارت" «René Decartes» (1596-1650)، في الفترة الحديثة على أهمية الذات العارفة القائمة بالأساس على الوعي بشكها والتي أثبت من خلالها وجوده. بعد المعنى الأنطولوجي المحض للوعي، سيدأ المفهوم في أخذ منحى أكثر تطورا وعمقا مع "يوهان غوتليب فخته" «Johann Gottlieb Fichte» (1762-1814) حين ربط الوعي بالحرية، واعتبر أن الحرية التي يصل إليها الإنسان هي أمانة على وعيه، وهذا ما أكدته "جون بول سارتر" «Jean-Paul-Sartre» (1905-1980) الذي يرى أن الإنسان محكوم عليه بالحرية التي لن تتأصل كفكرة، ولن تتجسد على أرض الواقع إلا من خلال ارتباطها بالوعي. وحتى "بيرتراند راسل" «Bertrand Russell» (1872-1970) يجعل للوعي أهمية بالغة في التعرف على بعض المظاهر النفسية للإنسان، الوعي عنده هو المساهم الرئيسي في الكشف على ما تحمله الذات من عواطف ومشاعر.

كل هذه الأطروحات وغيرها تشير إلى أهمية الوعي في إستعادة ذاتنا، إثبات وجودنا وأخذ حريتنا، ونظرا إلى هذه الأهمية، نرى بأن معنى الوعي وظف تاريخيا لمعالجة الأسئلة الفلسفية الكبرى، لكن "قضية الوعي" أعتبرها حاليا هي السؤال الفلسفي المحوري الذي يطرح في فترتنا المعاصرة، فبعد أن تساءل الإنسان عن أصل الوجود وأصل المعرفة، أراه اليوم يتساءل اليوم عن مصدر الوعي وكيفية تشكله لكي يبحث عن أساليب تطويره وتفعيله.

هذا ما دفع بمجموعة من الفلاسفة المعاصرين إلى تقديم آراء مختلفة المشارب حول هذه القضية التي مازالت قيد البحث، والتي دفعت بنا أيضا إلى طرح جملة من الإشكالات المختلفة وهي كالتالي: "ماهي طبيعة الوعي، هل هو ذو طبيعة مادية خالصة أم عبارة عن

"تفسير طبيعة الوعي، كخطوة نحو تحديد مستقبل الإنسانية."

تجربة شعورية ذاتية محضة؟، وإذا كان الوعي من طبيعة مادية، هل ستمكن من تصنيعه مخبريا من خلال المواد الكيميائية، والتقنيات التكنولوجية المتطورة و المتوفرة حاليا، أم أنه سيتعذر عينا ذلك؟، وإذا صُنّع هل سيبقى الوعي خاصية إنسانية أم أن الكائنات الحية الأخرى والمواد الجامدة سيصبح لها أيضا وعي؟.

وبعد أن كان الوعي سبيلا لإثبات الذات فهل سيصير مهيدا لبقاء الجنس البشري بعد تصنيعه أم أنه سيقدم لنا تصورا أكثر تطورا وتجديدا للوعي محافظا ومرسحا لوجوده؟".
- من أجل معالجة هذه الإشكالات، ارتأينا اعتماد المنهج التحليلي والمنهج النقدي نظرا إلى طبيعة الموضوع المقترح، الذي يتطلب تحليلاً معمقا لهذه القضية الشائكة ونقداً للأفكار المقترحة.

تعتبر مسألة "الوعي" أحد القضايا الإشكالية التي أصبحت تصنف كأبرز المعضلات في الحقل المعرفي والعلمي، وفي هذا الصدد نجد كلا من الفلاسفة والعلماء يسعون جاهدين إلى تقديم فرضيات، يحاولون من خلالها تفسير ما اصطلح عليه في المجال البحثي والأكاديمي ب: "مشكلة الوعي الصعبة":

"The hard problem of consciousness" وعلى إثر هذا قام الفلاسفة والعلماء بتطوير وتكثيف جهودهم ومساعدتهم أكثر، في عملية البحث عن تحليلات لمعالجة هذه الأزمة التي اختلفت وجهات النظر في تقديم تفسيرات حول طبيعتها، وطرح في هذا السياق ثلة من الأسئلة حول الموضوع أبرزها:

1- "هل الوعي ذو طبيعة مادية محضة أم أن لديه مظهرات أخرى تتجاوز الصبغة المادية؟".

لمناقشة هذا الموقف الإشكالي: نجد الفيلسوف "توماس نيجل" Thomas Negal (1937)، يطرح علينا سؤالا بوصفه عنوانا لورقة بحثية نشرت سنة (1974):
"كيف هو الأمر أن يكون الخفاش خفاشاً؟" . «What is like to be a bat» ،
هذا العمل الذي اعتبره "نيجل" بمثابة رد فعل على النظرية المادية، التي ترجع أصل كل شيء في الوجود إلى أساس مادي، كالإلكترونات والبروتونات، المصنفة على أنها عناصر مادية بحسب الفيزيائيين.

سمية بوربيعة.

بما أن عملية التفكير والشعور بالأحاسيس جزء من الوجود، "هل يعتبر الماديون الأفكار والمشاعر التي لا يمكن إدراكها حسياً عند الأغلبية، عبارة عن حركة مجموعة من الإلكترونات أم أن لديهم تصنيفاً آخر لها؟"

إن العقل، الرغبات، الأفكار، الذاكرة، المشاعر، العواطف والأحاسيس بالنسبة إلى النظرية المادية هي عبارة عن حالات ذات تفسير مادي بحت، فالشعور بالسعادة على سبيل المثال، يعتبر الهرمون "السيروتونين" هو المسؤول عن الإحساس به و"صبيغته الكيميائية" $C_{10}H_{12}N_2O$ ، نأخذ ذرة الهيدروجين المكونة له كمثال باعتبارها أبسط ذرات الجدول الدوري، فهي تتكون من بروتون واحد وإلكترون واحد، وبما أنه يمكننا رصد هذه المركبات الكيميائية إلى حد كبير من خلال المجهر الإلكتروني فهي تتمتع بوجود فعلي، والسعادة التي نشعر بها في موقف محدد ما هي إلا نتيجة حركة من الإلكترونات. مشاعرنا إذن هي ذات أصل مادي، وبالتالي حتى الأفكار والوعي يعتبران حالات كيميائية وتفاعلات بين الخلايا العصبية على مستوى النشاط الدماغي.

يرى "نيجل" أن النظرية المادية تحاول جاهدة هدم فكرة الثنائية الديكارتية التي يرى من خلالها "ديكارت" (1596-1650) « Descartes » أن العالم ينقسم إلى جسد، أي طبيعة مادية قابلة للتمدد، وإلى عقل يمثل عنده مركز التفكير الواعي ومجاله عالم الأفكار، معتبرة أن المادة المحضبة هي الوحيدة أساس الوجود.

يرى "نيجل" في هذا السياق أنه ليس من المعقول أن نقوم بفهم حالة أو شي بطريقه نقارن بها ما هو مألوف لدينا به (Thomas Negal, 1974, p:435)، لذلك هو يرفض في هذه القضية كل الإختلالات الفيزيائية والمادية للماديين (Thomas Negal, 1974, p:337)، ويرى بأن الوعي موجود عند مجموعة متنوعة من الكائنات الحية، وأن تكون واعيا هو أن تكون تعرف مايعني أن تكون كائنا، أو بشكل أكثر دقة، أن تكون لديك تجربة ذاتية من الخبرة التي عشتها.

هنا بالتحديد يعلن "نيجل" عن وجود ما يسمى بالوعي والصفات الذاتية الموجودة فيه، والمميزة له والتي تختلف بدورها من إنسان لآخر، ويكشف لنا موضحا كيفية التي تشعر بها الخفافيش بمحيطها وتكون على وعي به، موضحا أن معظم الخفافيش مدركة

"تفسير طبيعة الوعي، كخطوة نحو تحديد مستقبل الإنسانية."

للعالم الخارجي بشكل أساسي من خلال السونار أو تحديد الموقع بالصدى (Thomas Negal, 1974, p:438) «Echolocation»، حيث يصدر الخفاش في هذه الحالة إشارات صدها يعود إليه، ويساعده هذا من أجل تحديد موقعه والتعرف على الأشياء المحيطة به؛ لأن تصميم دماغه يقوم بترجمة هذه المدخلات ليعرف شكل وحركة الأشياء من حوله، وهذه الحاسة بالنسبة "لنيجل" هي خاصية مميزة للخفافيش فقط، ولا تشبه أي حاسة أخرى لدى الإنسان أو غيره من الكائنات، كما تختلف عن حاسة الشم، الرؤية وحتى السمع لدى الإنسان فهو لا يملك القدرة على إرسال ذبذبات يعود صدها إليه ليتحقق من الأشياء الموجودة من حوله. لذلك يؤكد "نيجل" مراراً وتكراراً أن هذه العملية لا تشبه إطلاقاً أي شيء يمكن أن نفترضه أو نتخيله نحن كبشر.

"2-هل كان للفلاسفة الماديون من أمثال "شرشلاند" موقفاً أمام طرح "نيجل"؟ "هل رفضوه في مجمله أم أنهم تبنوا نزلاً يسيراً من موقفه؟"

تلقى "نيجل" الكثير من الانتقادات من قبل الماديين على موقفه هذا، وعلى رأسهم "بول شرشلاند" «Paul Churchland» (1942)، الذي استهل مقاله الموسوم ب: "الإختزال، الكواليا، الإستبطان المباشر لحالات الدماغ"،

«Reduction, Qualia, and the direct introspection of Brain States» موضحاً كيفية عمل الإختزال النظري الذي يراه بمثابة حل منطقي لشرح كيفية فهم الأشياء التي نراها كل يوم بطريقة أفضل، كالأصوات، الألوان ودرجة الحرارة. إن الخصائص الباطنية والأطر النظرية الغامضة ليست الأشياء الوحيدة التي تتمتع أحياناً بالإختزال بين النظريات، وبالتالي فإن كل الأصوات المتوسطة تتطابق مع كونها تذبذباً في ضغط الهواء عند 440 هرتز، واللون الأحمر هو مجرد تطابق لوجود ثلاثة أضعاف كفاءة الانعكاس الكهرومغناطيسي، وهو نفسه في جميع أماكنه وحالاته، وحتى عملية التدفئة ما هي إلا مماثلة لإمتلاك مستوى متوسط معين من الطاقة المجهرية وهكذا دواليك، فكل الأشياء بالنسبة إليه تسير على هذه الشاكلة المادية (Paul . M . churchland, 1985, p:14).

سمية بوربيعة.

إن الأمثلة التي قدمها "بول شرشاند" لم يتم اختزالها ببساطة في نقطة البيانات المسجلة، حيث يمكنني تشغيل نغمة تبلغ 440 هرتز على جهاز الكمبيوتر الخاص بي، لكن لا يمكن مقارنتها بالنغمة ذات الصدى والوقع المختلف التي يتم عزفها في شوارع "روما"، بواسطة عازف كمان ماهر يعيش حالة من الإلهام والإبداع في تلك اللحظة. أما بالنسبة للون الأحمر الذي يمكننا قياسه بواسطة أطوال التنازل، يمكن أن يصنفه الفنان الرسام بأنه قرمزي أو أليزارين قرمزي أو كاميوم، فالقياسات في هذه الحالة أكبر بكثير من الأطوال الموجية التي حددها السيد "تشرشاند". أما بالنسبة للحرارة فيمكن قياس الدفء بالسعرات الحرارية أو الإلكترونات المثارة، لكن هذا لا يمكن أن يصف حالة الراحة في الجلوس بجوار المدفأة في يوم بارد.

يطلب منا "شرشاند" بعدها التفكير في متذوق النبيذ الذي يتم تقليل النبيذ الأحمر بالنسبة إليه لشيء أكثر من شبكة مكونة من عشرين عنصراً مميزاً، على سبيل المثال: الإيثانول، الجليكول، الثركتوز، السكروز، التانين، الحمض وثاني أكسيد الكربون والتي يمكن تقدير تركيز نسبتها بدقة. (P.M.churchland, 1985, p : 15)

يعتبر "تشرشاند" النبيذ بالنسبة إليه مجرد مركبات كيميائية، لكن الخبراء في تذوق المشروبات الكحولية يصلون لدرجة وضع ما يسمونه بالكلمات التي تصف أشياء خاصة وحالات ذاتية عاشوها، وهم بصدد تذوق النبيذ تمثل لهم هذه العملية تجربة شخصية وليس عملية احتساء لمركبات كيميائية.

كما أكد "تشرشاند" أن المتذوقون لا يتم اختيارهم بمعيار مدى تمكنهم من مادة الكيمياء، وفهم التفاعلات بين هذه العناصر بل العكس تماماً، فهم يختارون نظراً لتجربتهم الطويلة في تذوق مختلف أنواع النبيذ وأفخمها، إضافة إلى شدة حاسة التذوق لديهم التي طوروها نتيجة ولوجهم هذا المجال، حيث نجدهم يصفون النبيذ بأذواق مثل: البطيخ، الحمضيات، الشوكولاتة، القرفة، القرنفل، الصنوبر، الأزهار، الجريب فروت، أو كقفازات متوازنة من مادة الشعير، وكل هذه الحالات ذاتية لا علاقة لها بالبحث في طبيعة المادة.

3- "هل ألغى "نيجل" تماماً الطبيعة المادية للوعي؟ أم أنه اعتبرها جزءاً مهماً منه؟"

"تفسير طبيعة الوعي، كخطوة نحو تحديد مستقبل الإنسانية."

أعتقد أن "تشرشلاند" لم يفهم وجهة نظر "نيجل" الذي لم ينكر أبدا الأساس الفيزيائي للوعي، بل وضعه كدعامة رئيسية لفهم الوعي. لذلك نرى أنه يجب على الماديين الإعتراف بأن العلماء على اختلاف تخصصاتهم، لم يصلوا حتى يومنا هذا إلى نتيجة حاسمة ونهائية اتجاه الكيفية التي ينشأ من خلالها الوعي في الدماغ، على الرغم من التطور العلمي والتكنولوجي في العصر الحالي، ومن وضوح العناصر الكيميائية المكونة له.

يمكن أن نعتبر بأن البروفيسور الجراح في تخصص الأعصاب، والذي يعرف التركيبة التكوينية والتشريحية للدماغ البشري، سيكون وعيا ومعرفة دقيقة ومطلقة عن حالة المريض، لكن الجراح في هذا الموقف رغم من الكم الهائل من المعلومات التي يملكها حول الحالة، لن يتمكن من قراءة أفكار مريضه أو حتى الشعور بآلامه بعد العملية الجراحية.

نلاحظ بأن "توماس نيجل" يقدم لنا الخفاش كنموذج لتجربته ليشرح لنا من خلاله مسألة الوعي، وهذا الأمر هو ما دفع بنا إلى أن نطرح الإشكال الموالي:

"هل من الممكن أن يكون للحيوانات أيضا وعي، أي أنها تعي نفسها وتعرف سلوكياتها وتميز بأنها منفصلة عن الآخرين؟ أم أن الوعي صفة خاصة و مميزة للإنسان فقط على الرغم من أن "نيجل" يشير من خلال موقفه بأن الوعي صفة عند جميع الموجودات."

يرى الكثير من العلماء بأن للحيوانات وعيا، وبخاصة الأليفة منها كالقطط والكلاب، فعندما نكون بالقرب منها نلاحظ أنها تعيش ضمن نشاط داخلي خاص بها، تراها في بعض الأحيان تحزن، ومرات تتألم؛ لأنها متصلة بواقعها ومتفاعلة معه.

نجد عددًا كبيرًا من الكلاب على سبيل المثال يقفزون من الفرحة عندما يرون أن صاحبهم قد عاد إلى المنزل. يريد العلماء البحث عن عتبة التطور العصبي والكيميائي التي تجعل الوعي ممكنًا عند الحيوان. في هذه المرحلة "هل انتهت الأطراف المتصارعة فيما بينها إلى حل نهائي أم أنها بقيت تخوض غمار هذه المناقشات؟"

لم يصل كلا الطرفين إلى حل يرضي الجميع بل ظهرت مجهودات أخرى أثرت هذه الحركية الفكرية بين الفلاسفة، وفي ظل هذا السياق الجدالي يحاول الفيلسوف "فرانك جاكسون" «Frank Jakson» (1943)، أن يقدم ردًا على النظرية الإختزالية المغالية في المادية، وطرح أحد أشهر التجارب الفلسفية في الفترة المعاصرة بعنوان (تجربة ماري).

4- "من هي ماري؟"

ماري هي عالمة متألقة في غاية الذكاء، وأيما كان السبب لقد أجبرت على اكتشاف العالم من خلال غرفة لا يوجد فيها إلا اللون الأبيض والأسود، بذلك يمكن أن نتخيل بأن ماري منذ ولادتها وهي تعيش في غرفة بيضاء وسوداء، شعرها أسود وكذلك لون عينيها سوداوان ولون بشرتها أبيض.

إضافة إلى أن جميع الأثاث الموجود في الغرفة، حتى ملابسها وطعامها يحملان هذين اللونين، ولديها أيضا شاشة تلفاز تبث مقاطع وأشرطة تعليمية باللون الأبيض واللون الأسود، وفي ظل هذه الظروف السوداء والبيضاء ترعرعت "ماري" وكبرت حتى صارت عالمة أعصاب، ومختصة في علم الألوان وفيزياء الضوء، ولديها معرفة بكل الحقائق الفيزيائية حول الآلية التي يشتغل بها الدماغ لمعرفة الألوان. إضافة إلى تمكنها المطلق من علم الأحياء، ودرايتها الشاملة بالخصائص الدقيقة والتشريحية للدماغ، إضافة إلى علمها الكامل بدراسة الاختلافات في الأطوال الموجية للضوء: كأن نقول على سبيل المثال بأن السماء زرقاء، فهذه الموجات الضوئية هي بمثابة محفز للخلايا المخروطية في شبكية العين لتتعرف على اللون الأزرق، إضافة إلى معرفتها بالآلية التي تصل من خلالها الإشارات الكهربائية إلى العقل عن طريق العصب البصري، حيث يتم هناك تشكل كل الأنماط المختلفة من النشاط العصبي، والتي تتوافق وتتلاءم بدورها مع الملايين من الألوان التي يستطيع الإنسان أن يميزها، باعتبارها منتجا للنظام العصبي المركزي، حتى الطريقة التي نقوم من خلالها ببناء الحبل الصوتي بغية طرد الهواء من الرئتين، لننطق جملة "أن السماء زرقاء" درستها ماري على الرغم من تعقيدها (Frank Jakson, 1986, pp:291-295).

يمكننا أن نتخيل بأنه في يوم من الأيام حدث عطل في شاشة التلفاز التي تشاهدها "ماري"، وظهرت لها فجأة حبة طماطم حمراء وناضجة، في هذه الحالة من الجلي أن نطرح التساؤل التالي: "هل عندما رأت ماري اللون الأحمر ستتعرف على شيء جديد؟ هل ستعي أو ستحس بشعور لم يكن لديها من قبل؟ هل ستتشكل لها معرفة حول الوعي باللون الأحمر نفسه، الذي لم يكن موجودا في كل معرفتها التي صنفت على أنها كاملة؟"

"تفسير طبيعة الوعي، كخطوة نحو تحديد مستقبل الإنسانية."

يرى "جاكسون" بأنه على الرغم من تخصص "ماري" الدقيق في الألوان، إلا أنها ستتعرف على معلومات جديدة حول اللون الأحمر، والتي لم تكن تعرفها من قبل، وفي هذه الحالة لا يمكن أن نقول بأن "ماري" كانت تملك معرفة كاملة حول الألوان وبكل درجاتها، على الرغم من الكم الهائل من المعلومات التي كانت لديها، إلا أنها تعلمت شيئاً جديداً. هذا الموقف الذي تبناه "جاكسون" بالتحديد هو ما يطلق عليه الفلاسفة إسم: (الحجة المعرفية) «The Knowledge Argument» ، و التي لا يوضح لنا "جاكسون" من خلالها ما إذا كانت "ماري" تستطيع أن تتخيل تجربة اللون أم لا، ولكن حول "ما إذا كانت ستعرف ما هو شعورها بعد تجربة اللون الأحمر أم أنها لن تعرف؟". لقد قامت "ماري" في تجربته هذه بجمع جملة من المعلومات حول اللون الأحمر من خلال تجربتها الذاتية والوعائية التي قامت بها. و يعرف "دايفد تشالمرز" «David Chalmers» (1966)، لنا الوعي بأنه جملة من الظواهر التي تشكل لنا التجربة التي يمر بها شخص ما عند استشعار خاصية لشيء ما.

(Shneider Susan, Velmans Max, 2007, pp:225-226)

و هذا ما يوافق إلى حد كبير الأطروحة التي قدمها "توماس نيغل" حول التجربة الذاتية المشكلة للوعي من خلال الإحساس بشيء ما، و يبرر موقفه الذي يفند من خلاله هذه النظرية الإختزالية، مؤكداً أنه مثلما لم تتمكن "ماري" من التعرف على اللون الأحمر قبل رؤيته، فلن يستطيع الإنسان أن يتخيل كيف هو الأمر أن يكون عليه خفاشاً (Thomas Negal, 1974, p:331).

يرى هؤلاء الفلاسفة بحسب "الحجة المعرفية" «The Knowledge Argument» ، بأن العالم يتميز بصفات غير مادية وهو في الأساس لا يقتصر على الصفات الماديّة المحسوسة فقط، هناك مجموعة من التجارب الوعائية التي يخوضها الإنسان، لكننا لم نتمكن أبداً من معرفتها، فالأمر بالنسبة إلى "جاكسون" لا يقتصر على ماديّة الأشياء فقط بل يتجاوزها إلى ماديّة المعلومات.

هذه هي الجزئية المهمة التي انتبه إليها وحاول أن يجعلها ذات بعدين مادي وشعوري ذاتي متفاديا بذلك كل المواقف الإختزالية. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الموقف هو أحد أكثر

سمية بوربيعة.

النقاط إثارة للقلق بالنسبة للنظرية المادية، "لكن لماذا هذه النقطة بالتحديد؟" قبل أن تختبر ماري اللون، كانت على قناعة تامة بمدى صدق معرفتها حول الألوان، لكن بعد أن قامت بتجربة اللون الأحمر أدركت على الفور الشعور بأنها تفتقر إلى المعلومات المتعلقة بتجارب الآخرين طوال الوقت، فهذا الشعور بالمعرفة المفقودة الذي تولد عند "ماري" هو ما لا يمكن تفسيره بالحقائق المادية لديهم.

لكن بالمقابل نجد بعض الفلاسفة و العلماء الذين يرفضون هذا الموقف، وأشهرهم "دانييل دينيت" «Daniel Dennett» (1942)، والذي يرى بأنه من الواضح عدم وجود ألوان حقيقية في دماغنا، عندما ننظر إلى وردة حمراء، يجب أن يقوم دماغنا بترميز اللون بطريقة ما (Daniel Danette, 1992, p:398)، فمن الضروري أن يكون هناك نوع من نظام النواقل، يحدث على مستوى الدماغ في مكان ما، ولكن كما يقول "دينيت" إذا كان هذا هو الحال فإن الدماغ يوضح لنا ببساطة أن اللون الأحمر يتم اختباره، إذ لا ينتج الدماغ حقا لوناً أحمر، أو يضيف على أي شيء الصبغة الحمراء أو حتى يقوم بمزج هذا اللون. ثم يكمل ساخرا "تجربة ماري" الدرامية على طريقته، ويبين لنا عندما قرر خاطفو "ماري" أن الوقت قد حان لكي ترى الألوان، كأول تجربة لها، حين قدموا لها موزة زرقاء، لكنها اكتشفت خداع خاطفها، وبيئت لهم أن الموز أصفر؛ لأن لديها معرفة مسبقة بالإنطباع الحسي للون الأصفر وبكل الألوان؛ ولأنها تعرف ببساطة جميع ردود الفعل (Daniel Danette, 1992, pp:399-402).

يوضح لنا "دينيت" بأنه عندما تختبر الوعي، فإنك كل ما تفعله حقاً هو التفكير بأنك تعاني من مشكلة في جودة اللون الأحمر الذي تراه فقط، فأنت لا تستخدم عين عقلك لرؤية اللون الأحمر على لوحة افتراضية في دماغك، بحيث لا توجد أية لوحة أو شيء أحمر يحدث بالفعل في دماغك، و ليس هناك عصب مسؤول عن فك النبضات العصبية و تحويلها إلى معرفة لون أحمر فعلي.

من خلال هذا الطرح نستنتج أن كل ما يحدث ل "ماري" بالنسبة "لدينيت" هو عبارة عن عملية دماغية، يصدر من خلالها عقلك حكماً حول اللون، لأنه في الأساس لا يوجد شيء في الظاهرة أكثر من الحكم. (Daniel Danette, 1992, p:366).

"تفسير طبيعة الوعي، كخطوة نحو تحديد مستقبل الإنسانية."

نجد أيضا "نيكولاس همفري (Nicholas Humphery) (1943) «يؤيد موقف زميله "دينيت"، حيث يرى بأن النزعة المادية تمثل الآن الرأي المقبول من طرف الكثيرين لدرجة أنه يقترب من الإجماع، ويؤكد أن "ماري" تملك كل المعلومات الكاملة عن الألوان، على الرغم من أن المتجاوزين للتفسير المادي المحض اعتبروها جاهلة باللون الأحمر. الفرق عندهم يكمن في الطريقة التي وصلت بها المعلومة إلى دماغ "ماري"، كأن تسمع زقزقة العصفور و أن ترى صورته، في هذه الحالة فإن نفس المعلومة قد وصلت إليك ولكن بطرق مختلفة، لذلك من اعتبروا أن الوعي هو تجربة ذاتية، فالأمر مجرد وهم (Nicholas Humphery, 1999, pp: 106-133)

5- "بما أن الوعي ليس ذو أساس مادي خالص عند الفلاسفة الذين يقرون ب:"الحجة المعرفية" بل تضاف إليه الخبرة الشعورية ذات الطبيعة اللامادية، والكون لطالما وصف بهذه الخاصية المادية المحضة، بعد هذا الطرح هل ستتغير نظرتنا للكون؟ أم أنها ستبقى على حالها؟"

أرى أنه من الغريب أن يكتب شخص ما عن الوعي دون أن يفكر في الأحداث الذهنية والحالة الشعورية الذاتية التي يعيشها، بدلاً من أن ينظر إلى التركيبة المادية للدماغ، فعندما يشعر "دينيت" و"هامفري" بضرورة اتخاذ هذا الموقف يبدو بأنهما يريدان التمسك بأعلى المعايير العلمية والموضوعية، فهما يتبنيان الطرح القائل بالتصور المادي للكون، فرفضهم للتجربة الذاتية الواعية التي تحتوي على جزء لا مادي هو موقف أساسي عندهم، لأنهم في الواقع لا يقرّون بوجود النفس، الروح وحتى الإله. فإذا تقبلوا الطرح القائل بالزامية اعتبار التجربة الواعية حالة شعورية غير مفسرة بطريقة ماديّة، فالكون بالنسبة إليهم لن يكون مؤسساً على النموذج الفيزيائي المادي الحالي في العالم، بل سننتهي إلى نموذج آخر للكون متطور ومختلف تماماً عما هو عليه الآن، والمعضلة تكمن عند الفيزيائيين في مرحلة وضع القوانين، "هل من الممكن أن يضيفوا عنصراً روحياً غير قابل للتكميم؟ أو طاقة غير معروفة؟ كيف ستكون النتائج في هذه الحالة؟".

بعد هذه المقدمات المطروحة "هل حان الوقت لنضع قطيعة إبستمولوجية مع معارفنا السابقة لنبحث عن نظرة وتفسير مختلف للكون والعالم؟ أم أننا سنبقى نوهم

سمية بوربيعة.

أنفسنا ونقنعها بالنموذج الحالي؟". أرى من خلال وجهة نظري بأن الوقت قد حان لمراجعة الكثير من المسلمات التي ثبتت في نظام الاعتقاد لدينا، والتي لم تعد مجدية، بل نريد التأسيس لتجربة النموذج الجديد الذي يراعي يأخذ بالحسبان هذه المظاهر اللامادية لأنه علميا أعلى درجات الموضوعية هو عدم تجاوز هذه التفاصيل المهمة و الفارقة، التي من شأنها أن تحدث انفجاراً في القشرة الدماغية وتغير نظرة الإنسان إلى العالم باستمرار، فالمغالاة في المادية أراها موقفاً دوغمائياً، محركاً للأفكار من جهة و قامعا لحرية التفكير بمنهجية من جهة أخرى.

يؤكد "توماس نيجل" على هذا الموقف قائلا "إن نظرية الوعي التي لا تتضمن أحداثا عقلية تشبه كتابا من "بيكاسو" لا يذكر فيه أيا من لوحاته- (Thomas Negal, 1969) (88:p, 1994، و يضيف "جون سيرل" (1932) « John Searl » معلقا على الموقف الإختزالي الذي يشبهه بأنه "مثل حرب النجوم بدون قوة" (John Searl, 1990, p, 100) ، و "سيرل" في هذا السياق يعبر عن ذهوله من الماديين الذين يسعون لتفسير تجربتهم الواعية ماديا فقط.

بما أن "سيرل" يعالج هذه المسألة: "هل قدم لنا تعريفا للوعي أم أنه اكتفى بدحض النظرية المادية؟". الوعي عند "سيرل" هو نتاج بيولوجي لنشاط الدماغ، وهو حقيقي أي أن له وجود فعلي، مثله مثل أي شيء آخر موجود في العالم الطبيعي. المشكلة الوحيدة التي يعترف بها هي أننا لا نملك أدنى فكرة عن الكيفية تكون فيها العقول في حالات عقلية واعية. وهذا ما أدى إلى استمرار المشكلات في معالجة الموضوع. وفي هذا السياق يضيف الفيلسوف "جيرري فودور" (1935-2017) «Jerry Fodor» معلقا ومؤكدا على موقف "سيرل" بأن لا أحد لديه أدنى فكرة عن كيف يمكن لأي شيء أن يكون واعيا؛ لأن الأمر بالنسبة إليه في غاية التعقيد ويتجاوز كل تفسير مادي.

لم يتوقف "سيرل" عند هذه النقطة بل راح يفند رأي "دينيت" في الجزئية التي يخبرنا من خلالها، بأنه لا يوجد فرق حقيقي بين آلة تذوق النبيذ و متذوق النبيذ البشري، فبالنسبة إليه الإنسان و الآلة متشابهان في عدم قيام أي منهما بتجربة شعورية ذاتية، فنحن مثل الزومبي، لا أحد منا ستكون لديه تجربة شعورية ذاتية، حتى الروبوت المبرمج سيكون واعيا

"تفسير طبيعة الوعي، كخطوة نحو تحديد مستقبل الإنسانية."

مثلنا -كيميائيا- على حسب تقدير "دينيت"، لأننا مجرد آلات عضوية من طبيعة كربونية معقدة فقط.

يجب علينا في أن نشير أولاً إلى موقف "دينيت" الجريء، إذ سعى بكل الطرق إلى إثبات مادية المعلومات في الكون بأسره، وفتح لنا باباً واسعاً لإحدى أبرز الإشكالات المعاصرة سواء في الفلسفة أو العلم، فقضية الوعي في الأساس تعتبر من القضايا التي تمثل تحدياً صريحاً وواضحاً أمام الفهم المادي المحض للعالم، وحتى "ريتشارد دوكنيز" richard dawkins (1941)، يرى أنه من الصعب جداً تفسير وعي الإنسان ومصدره، ويضيف قائلاً اقدفوا الكرة بعيداً عني إلى ملعب الآخرين، حتى "لويس ولبرت" Lewis wolpert (1929-2021)، يتحاشى النقاش في هذا النوع من المواضيع ويتفادها. لكن لماذا يتحاشى الماديون هذه المواضيع ويتفادونها؟ لأن القضية الرئيسية المرتبطة بالوعي هي "الفهم" Understanding"، وإذا توصلنا إلى تقديم تفسير مادي لعملية الفهم كما يحاول كل من "دينيت" "هامفري" و "تشرشلاند" سنقوم بـ: "صناعة الوعي".

6- "بما أن المادة تتكون من عناصر كيميائية، وهي متوفرة في المخابر العلمية، "هل من الممكن أن نقوم بتصنيع روبوت يحقق لنا عملية الوعي والفهم بمعناه البشري باعتباره جسم كربوني مثل البشر؟" وهل من الممكن أن يمتلك أحاسيس البشر أيضاً وأن يقوم بنفس سلوكاتهم، أم أنه سيتعذر عليه ذلك؟"

للإجابة عن هذه الإشكالية يقترح علينا سيرل تجربة أطلق عليها اسم : (الغرفة الصينية) «Chinese room» يردُّ من خلالها على أحد الاختبارات التي قام بها عالم الرياضيات "آلان تورينغ" «Alan Turing» (1954-1912)، يبين لنا فيها آلية الكشف عن الوعي لدى الروبوتات، فلو افترضنا من خلال "اختبار تورنغ" "Torin" "test" أن هناك غرفة، تم تقسيمها إلى جزئين، جزء يحتوي على روبوت و الجزء الآخر يحتوي على إنسان ونحن لا نعرف مكان تواجد كل واحد منهما. بعدها نقوم بإرسال أسئلة في العديد من المجالات لكل منهما، شريطة أن تكون متشابهة بغية تسهيل الحصول على نتائج للتجربة، ونقوم بعدها بملاحظة الأجوبة التي قدمها كل طرف، فإذا كانت الإجابات لا تختلف من حيث بنيتها وتركيبها سواء اللغوية و المنطقية، لدرجة أنه لن نتمكن من التفريق بينهما، فإننا نستنتج

سمية بوربيعة.

في هذه الحالة أن الروبوتات لديها وعي مثل البشر، ويؤكد مستقبلاً بأنه في المستقبل القريب سيتمكن الكمبيوتر من القيام بنفس العمليات العقلية الواعية التي يقوم بها الإنسان العادي، يحتاجون فقط إلى اجتياز "إختبار تورنغ" الذي لا يتعدى الخمسة دقائق.

(Alan.M.TUNRING,1950,pp:433-460).

ماهو السبب الذي دفع ب"سيرل" إلى رفض موقف "تورنغ"؟ و هل قدم حججاً أخرى لدحضها؟

من خلال تجربة الغرفة الصينية يتخيل "سيرل" نفسه جالساً في غرفة موصدة، وفوق مكتبه يوجد كتاب يحتوي على مجموعة من التوجيهات المكتوبة باللغة الإنجليزية، بما أنها لغته الأم، فهو متمكن لا محالة من القراءة والكتابة والتكلم بها. في ضمن هذا الكتاب نجد أن كل كلمة باللغة الإنجليزية على سبيل المثال، تقابلها لفظة باللغة الصينية، وخارج الغرفة هناك رجل يقوم بإرسال أسئلة له باللغة الصينية، وهو لا يرى من الداخل. بعد مدة تقدم له الأجوبة عن أسئلته باللغة الصينية، "سيرل" لا يفقه هذه اللغة، "فكيف تمكن من تقديم الإجابة الصحيحة للرجل؟"، كل ما قام به هو اتباع تلك التوجيهات التي فك من خلالها شفرة اللغة الصينية، بالتوجه مباشرة إلى المكان الذي يحتوي على الأجوبة باللغة الصينية، وهذا لكي يقدمها للرجل الذي ينتظر في الخارج. ونظراً إلى الإجابات الدقيقة التي قدمها "سيرل"، كان الرجل الموجود خارجاً متأكداً، بأن من أعطى له الأجوبة هو إنسان متمكن من اللغة الصينية، على الرغم من أن الغرفة لا تحتوي إلا على رجل واحد ولا يعرف إلا الإنجليزية.

هذه التجربة ألا تذكركم بآلة تطرح عليها مجموعة من الأسئلة وبضغط زر تقدم لنا الأجوبة؟ نعم، إنه الكمبيوتر الذي يشتغل على نظام من الخوارزميات، ولا يفقه أي شيء آخر، لأن كل ما يحتوي عليه عبارة عن برمجة يتعامل بها مع مجموعة من الرموز، وهذا هو السبب الذي دفع به إلى تقديم إجابات عن الأسئلة المقدمة له، لكنه لا يفهم معناها معنى الأسئلة أو معنى الأجوبة أيضاً، وهذا هو الأمر المختلف والذي يميز بين الإنسان والآلة.

أعتبر بأن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد؛ لأن الآلة كما أراها ستبقى هي نفسها حتى ولو مر عليها 20 سنة -إلا إذا قام عقل بشري بتطويرها-، لكن "سيرل" في هذه التجربة يمكن

"تفسير طبيعة الوعي، كخطوة نحو تحديد مستقبل الإنسانية."

له أن يتعلم اللغة الصينية لو زاول المهمة أكثر وقام بتكرار المصطلحات بطريقة غير واعية منه، كما ستتاح له الفرصة لو أنه أخذ الأمر بجدية وإذا امتلك الإرادة، بكتابة مؤلفات فيها روح الإبداع باللغة الصينية. وهذه القدرة هي الخاصية المميزة التي لا تملكها الآلات، وهي إمكانية تطوير المهارات وجمع المعارف المختلفة.

لكن هناك ثلة من المعارضين ترى أن الرجل الموجود في الغرفة يعرف اللغة الإنجليزية و لا يفهم الصينية، إذن فهو كآلة، و لم يقدم لنا شيئا جديدا، يجيبنا "سيرل" بأن الرجل صراحةً لا يعرف الصينية لكن النظام المكون من إنسان، كتاب، تعليمات وبيانات مكنه من فهم اللغة الصينية، والفهم في هذه الحالة، يمكن أن نعرّفه باعتباره تلك التوليفة والتركيبية السلسلة و المترابطة التي تتكون بين المعلومات الموجودة بين الإنسان و محيطه لتصنع لنا صورة حول الموضوع قيد الدراسة، فهي أكبر من أن تكون مدخلات ومخرجات لمعلومات حتمية على شكل إلكترونات وكواركات وأوتار كما يراه الماديون (Jhon Searle, 1980, pp: 417-424).

الطرح المادي هو مايتبناه دعاة مشروع "مابعد الإنسانية" «Transhumanism»، حيث يريد أصحاب هذا الرأي استغلال موقف مادية الوعي من أجل أن يقوموا بتصنيع "الوعي" بغية تطويره والتحكم به، وفي هذه الحالة يمكن تسويق الوعي من قبل شركات للذكاء الاصطناعي. وهناك بحوث علمية تجرى عن إمكانية جعل الروبوتات واعية، حيث تأخذ قرارات معينة وفق ماتملكه من معلومات وبناء على خوارزميات خاصة، هذا بعد الوصول لنقطة الإنفراد «Singularity» التي تكلم عنها "راي كروزويل" «Ray Kurzweil» (1948)، حيث يعتبر بأن نقطة الإنفراد هذه هي لحظة قريبة جدا، وهي نقطة انفجار الذكاء في العالم، التي ستمهد لبداية مرحلة جديدة سيعيشها الكون، قائمة على الذكاء الاصطناعي. أعتبر أن أصحاب هذا الطرح يتبنون "نظرية التطور الداروينية"، معتبرين أن مرحلة الذكاء الصناعي هي نموذج متطور لجنس جديد من طبيعة مختلفة، سيعوض البشرية مثلما عوضت البشرية من سبقتها من كائنات.

7. خاتمة:

سمية بوربيعة.

يسعى علماء الذكاء الذكاء الإصطناعي جاهدين، إلى جعل الآلات واعية، من خلال تصنيع التركيبة النهائية للوعي وفق خوارزمية خاصة، لتدشين حقبة زمنية جديدة تكون التقنية فيها هي محو الكون، نظرا لإمتلاكها لمعدلات ذكاء خارقة على حد زعمهم، التي ستجعل الروبوتات تتحكم في البشر والعالم وتقوم بكل عمل يقوم به الإنسان لدرجة حل العضلات والإشكالات الفلسفية الكبرى، بالتالي فإن الروبوت يفكر، وتفكير الروبوت دليل على وجوده، وبذلك نكون قد انتقلنا حاليا من "الكوجيتو الديكارتى" إلى "الكوجيتو الروبوتى"، ومن الممكن أن تكون للروبوتات أيضا عواطف، مشاعر، أحاسيس وتجارب شعورية ذاتية وكذلك روحانيات.

وفي سياق متساوق نجد "كيفن كيلي" «Kevin Kelly» (1952) الكاتب الصحفي، المهتم بالتكنولوجيات ومؤسس مجلة «WIRED»، يقول لنا بأنه من الممكن أن تكون هنالك روبوتات مستقبلا مؤمنة تسألنا عن كيفية عبادة إله اختارته.

كما هو معروف في بعض المعتقدات والأديان أن يكون الخالق هو المعبود، والإنسان في هذه الحالة صنع ولم يخلق الروبوتات من خلال وجهة نظري، وفي هذه النقطة نتساءل: "هل من الممكن أن تعبد الروبوتات الإنسان لأنه هو من صنعها من مواد مختلفة؟ أم أنها ستختار إلهها من طبيعة أخرى؟ وكيف سيكون ذلك الاختيار وعلى أي أساس سيبنى؟"، هنالك احتمال آخر هو أن نجد علماء يفرضون ألوهيتهم على الروبوتات. بما أن الروبوت صُنِع ولم يخلق وأصبح مفكرا ولديه حرية اختيار ووعي فهل من الأخلاقي سلبه حرية الاختيار؟ فلو كان لديه حق الحرية هذا، فذلك ستفرض عليه واجبات وعقوبات، ثم كيف سنعاقب روبوتا ارتكب جريمة أو سيارة ذاتية القيادة تسببت في قتل إنسان؟، العقاب في هذه الحالة يحتاج لمشاعر تسبب الألم لروبوتها، فلو بلغت الروبوتات مرحلة التطوير الآلي لها وصارت لديها عواطف وأحاسيس، لكانت مصدر تهديد لبقاء الجنس البشري لامحالة، ولو بلغت هذه المرحلة لما شعرت بالحاجة إلى الإنسان، بل العكس من ذلك، سيصبح الإنسان عالة في هذا الوجود، فهو سيستنفذ المواد الأولية الموجودة في الكون، كما يوجد احتمال كبير وهو أن تكون هذه المشاعر الروبوتية ذات نزعة تدميرية وعدوانية، مثل التي لدى الروبوتات المنظمة إلى جيوش بعض الدول. وفي هذه النقطة سيصير ممكنا أن نشهد حربا طاحنة بين جيش من

"تفسير طبيعة الوعي، كخطوة نحو تحديد مستقبل الإنسانية."

البشر وجيش من الروبوتات، وستكثر الصراعات والمواجهات بينهما حيث البقاء فيها سيكون للأقوى، وهذا ماتتبهنا بعض النماذج من أفلام الخيال العلمي التي تريد تهيئة الإنسان وبرمجة اللاوعي الخاص به مسبقا على هذه الأفكار.

أرى بأن الذكاء الإصطناعي يستحيل أن يحل مكان البشر أو يقوم بهزمهم؛ لأنه مصنوع من قبل الإنسان وهو في حاجة ملحة لتطويره المستمر من قبل صانعه. نستنتج أن قضية الوعي لم يحسم الأمر بشأنها إلى يومنا هذا، فهي تمثل أحد أهم الحقول المعرفية الخصبة، والقضايا الإشكالية المستجدة والرئيسية، التي لو تعمقنا فيها أكثر ستساعدنا على حل أكبر أزمت الإنسان المعاصر، وهنا بالتحديد تكمن فعاليتها. فلو تمكنا من فهم الطريقة التي يفكر بها الإنسان ويصدر بها الأحكام ويقوم بسلوكياته اليومية، فسنعرف لا محالة على الأسباب الواقعية التي جعلت منه يفقد ذاته ويعيش حالة استيلا ب. وفي خضم الثورة المعلوماتية التي اضطرته لموازة التقنية التي أجبرته على العيش في متاهة، وجعلته يدمن على الركن فيها عاجزا عن إنقاذ نفسه منها، وقبل عملية تصنيع الوعي والروبوتات المجسدة ل: "مشروع مابعد الإنسانية"، حري بنا أن نفهم الوعي بتفاصيله، مراحل و اختلافاته كأقل تقدير، وأن يعرف الإنسان معنى أن يكون إنسانا؛ لأنه إذا وصل لهذه المرحلة سيدرك قيمة إنسانيته ووعيه وخصوصيتهما، ولن يتحدى الطبيعة ويتجاوزها؛ لأنه سيكون واع بقيمة القوانين الكونية، التي لن تسمح له بالتجاوز وستسعى لإعادة توازنها بكل الطرق، لذلك تفسير طبيعة الوعي ومعرفته هي من ستحدد مستقبل الإنسانية، إما أن يطغى الذكاء الإصطناعي على الحياة ويلغي وجودنا حسب الاختزالين، خصوصا إذا اتحدت الذكاءات مع بعضها، أو سنفتح الطريق أمام توجه جديد واقعي، يتماهى وطبيعة الإنسان المادية، الفكرية ومع باقي أجساده المشاعرية، الطاقية والأثرية.

قائمة الكتب باللغة الإنجليزية:

Danette Daniel,(1992), *Consciousness Explained*, 1st edition, U.S.A, Back Bay Books.

Schneider Susan,Velmans Max (2007), *the black well companion to consciousness*,1st ed, Blackwell publishing.

Humphery Nicholas,(1999), *A History Of The Mind*, Copernicus ;1st Edition, U.S.A.

Searle John ,(1997), *the mistery of conciousness* , a new york review of books.

Negal Thomas, (1995), Dannett : Conciousness DIssolved In Other Minds : critical essays 1969-1994,1st edition ,(Oxford University Press).

قائمة المقالات من المجلات والجرائد العلمية والفلسفية باللغة الإنجليزية:

Turing Alan.M,(1950),*computing Machinery and Intelligence*, *mind a quarterly Review* ,vol.59.No.236 ,(pp :433-460).

Jakson Frank, (Jan 1985), *what mary didn't know* , *The journal of philosophy* , vol. 82,No.1, (pp:291-295).

Searl John,(1980), *The Chinese Room* , *Mind Brain and programs,Behavioral and Brain sciences*, Vol.3, Issue.3 ,Cambridge University Press, (pp :417-424).

Cherchland .M.Paul,(1985),*Qualia and the direct introspection of brain states* ,*The jornal of philosophy*, vol 82,no. 1,(pp :14-15).

Negal Thomas , (oct., 1974), *what is like to be a Bat ?* ,*the philosophical Review* , vol. 83,No. 4,(pp :435-438).